العلم في اللغتينِ الإنجليزيـةِ والعربيـةّ ومستقبلُ التعليمِ والبحثِ العلمي والثقافةِ فيهما

د.شفيق بنات/ كليـةّ الآداب - جامعة جرش- الأردن
banat@jpu.edu.jo

أ.د.فؤاد عبد المطلب/ كليـةّ الآداب - جامعة جرش- الأردن
fuadmuttalib@jpu.edu.jo

تاريخ الاستلام:2024/01/03 تاريخ القبول:2024/02/18

ملخص

يدرسُ هذا البحثُ قضايا مهمَّةً في مجالات البحثِ والتعليم والترجمةِ والنشرِ تتعلَّق باستعمال اللغةِ الإنجليزيَّة بكونها أداةً للتواصلِ بين الباحثينَ والأكاديميينَ مع اللغةِ العربيَّة بكونها لغةً قوميَّة. ويتناولُ بعضَ الأفكارِ الرئيسةِ المتَّصلةِ بهذا الموضوعِ في ضوء احتياجاتنا إليها لكوننا قرّاءً ومختصّينَ وطلبةً جامعيين. ويناقشُ قضيَّة العلمِ والحاجةَ المستمرَّةَ إلى لغةٍ عالميَّة في البحثِ العلميّ. ويقفُ عند أهميَّة اللغةِ الإنجليزيَّة بكونها لغةً مشتركةً في البحثِ والنشرِ والتعليمِ في عالمنا المعاصر، وعند هيمنتِها وتأثيراتِها في التعليم والبحثِ والثقافةِ عموماً. ويحاول تقديمَ بعضِ الآراءِ الساعيةِ إلى تشكيلِ إجابةٍ معينةٍ عنِ التساؤلِ العريضِ المتضمَّنِ في العنوانِ بمناقشة معلوماتٍ وأفكارٍ ومقترحاتٍ في جواز أن يفرَضَ علينا استعمالُ الإنجليزيَّةِ بكونها لغةً رائجةً أو اللغةِ العربيَّةِ في تلك المجالاتِ التي تهمُّنا. ويكتسبُ هذا النقاشُ معنىً بالنسبة إلى الباحثينَ ومدرّسي الموادِّ العلميَّةِ واللغةِ الإنجليزيَّةِ والمترجمينَ والمعربينَ والكتّابِ والمحرّرينَ والناشرينَ قرّاءِ العربيَّةِ عموماً. ويثيرُ ذلك كلُّهُ نقاشاً آخرَ فيه شروحاتٌ وآراءُ وإجاباتٌ تشيرُ إلى تجاربَ عمليَّةٍ أو نظريَّةٍ تتَّسمُ بالموضوعيَّةِ والحيويَّةِ من المشتغلينَ بالتعليمِ والبحثِ والثقافةِ ويواجهونَ مشكلاتٍ وتحدّياتٍ متزايدةً يومياً. ويتداخلُ في ذلك العاملانِ الشخصيُّ والعلميُّ بحيثُ يمكنُ القولُ إنَّ إنتاجَ المعرفةِ جزءٌ من عمليَّةٍ تنمويَّةٍ اجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وثقافيَّةٍ شاملةٍ. ويستندُ هذا العملُ إلى تجاربَ وملحوظاتٍ ونتائجَ عمليَّةٍ لباحثينَ مشتغلينَ في هذا الميدانِ وإلى دراساتٍ نظريَّةٍ تتناولُ جوانبَ مختلفةً من القضايا المثارة.

كلماتٌ مفتاحيـةٌّ: اللغةُ العالميَّةُ، اللغةُ الإنجليزيـةّ، اللغةُ العربيَّة، مستقبلُ البحثِ العلميّ، الهيمنةُ اللغويَّةُ، النشرُ العلميُّ، التنميـةُ والتعليمُ.

Science in the English and Arabic Languages and the Future of Education, Scientific research and Culture in Them

Dr. Shafiq Banat / Faculty of Arts – Jerash University– Jordan
Sh.banat@jpu.edu.jo
Prof. Fuad Abdul Muttaleb/ Professor, Faculty of Arts- Jerash University
fuadmuttalib@jpu.edu.jo

Abstract

This article examines recent issues of research, education, translation and publication related to the use of English as a tool for communication among researchers and academics as well as Arabic as a national language. It addresses some of the key ideas related to this subject in the light of our needs as readers, specialists and university students. It discusses the issue of science and its constant need for a universal language in scientific research, while addressing the importance of English as a common language in research, publishing and education in our contemporary world. It also addresses the dominance of English and its impact on education, research and culture in general. And it tries to provide some of the views that seeks to form an answer of a certain kind to the broad issue contained in the title by discussing some information, ideas and suggestions on whether we should use English as a prevalent language or Arabic language in those areas of interest to us. This discussion is meaningful for researchers, teachers of scientific subjects, English, translators, commentators, editors, publishers and Arab readers in general. This will raise another debate in which explanations, opinions and answers will be given to practical or theoretical experiences that are objective and vital to those involved in education, research and culture who face increasing problems and challenges daily. This is intertwined by personal and scientific workers, so that knowledge production can be said to be part of a comprehensive social, economic and cultural development. This work relies on the experiences, observations and findings of research works and theoretical studies produced on different aspects of the raised issues.

Keywords: global language, English, Arabic, future of research, linguistic hegemony, scientific publishing, cultural, development and education.

العلم في اللغتينِ الإنجليزيـَّةِ والعربيـَّة ومستقبلُ التعليمِ والبحثِ العلمي والثقافةِ فيهما

1. مقدمة

يتطرَّقُ هذا البحثُ إلى قضايا غدتْ مهمَّةً في مجالات البحثِ العلميّ والتواصلِ والتعليمِ والنشرِ فصناعةُ العلمِ تتعلَّقُ بضرورة استعمالِ اللغة الإنجليزيـَّةِ بكونِها أداةً لتواصلِ الباحثينَ والأكاديميّينَ إلى جانب اللغةِ القوميـَّةِ في تلك المجالاتِ. ويناقشُ أولاً قضيـَّةَ العلمِ والحاجةَ المستمرَّةَ إلى لغةٍ عالميـَّةٍ في البحثِ العلميّ: أي الإنجليزيـَّةُ. ويعرض ثانياً هيمنةَ اللغةِ الإنجليزيـَّةِ وتأثيراتِها في التعليمِ والبحثِ والنشرِ والثقافةِ. وفي أثناءِ ذلك يتطرَّقُ إلى لغاتِ العلمِ العالميـَّةِ في الماضـي، وإلى أهميـَّةِ اللغةِ الإنجليزيـَّةِ العلميَّةِ في عالمِنا المعاصرِ ومستقبلِ كونها لغةً مشتركةً. ويحاولُ تقديمَ آراءَ تخدمُ في تشكيل إجابةٍ بعينِها عنِ التساؤلِ العريضِ المتضمَّنِ في عنوانه بمناقشة معلوماتٍ وأفكارٍ ومقترحاتٍ في أنْ يُفرَضَ علينا استعمالُ الإنجليزيـَّةِ بكونها لغةً رائجةً أوِ العربيـَّة في

المجالاتِ التي تعنينا. ويكتسبُ هذا النقاشُ معنىً بالنسبة إلى الباحثينَ ومدرّسي الموادِ العلميّةِ واللغةِ الإنجليزيّةِ والمترجمين والمعرّبينَ والكتّابِ والمحرّرينَ والناشرينَ والقرّاءِ العربِ عموماً لأنّهُ يقع في سياقِ العلاقةِ بين المحلّيّ والعالميّ. وتحتاجُ القضايا بلا ريب إلى إنعام النظرِ فيها مليّاً بسبب التعقيداتِ الناجمةِ عن هيمنة اللغةِ الإنجليزيّةِ في ميادينِ التعليمِ والبحثِ والنشرِ والتواصلِ العلميّ والثقافةِ، وعلاقةِ لغتنا وموقفِها من ذلك كلِّهِ، فهي مدعوّةٌ إلى المنافسةِ والتدخُّلِ تلبيةً لدواعيَ علميّةٍ ولغويّةٍ وثقافيّةٍ وقوميّةٍ. لذلك انطلاقاً منَ المشكلاتِ الملحّةِ المعيشةِ، يتناولُ البحثُ تحدّياً جديداً ربما لم يكن موجوداً سابقاً بالشكلِ الذي هو عليه الآنَ، ويختزلُ في مناقشتِه الهدفَ الأساسيَّ لهذا البحثِ.

يعرّفُ د. جهاد حمد البحثَ العلميَّ قائلاً: "إنَّ البحثُ العلميُّ من أهمِّ الأنشطة الإنسانيّةِ التي يقومُ بها الباحثُ في هذا العصرِ، إذ كان على مرِّ العصورِ أساسَ النهضاتِ وعمادَ الدولِ، وركناً رئيساً في تفاهمِ الثقافاتِ والحضارةِ الانسانيّةِ والعمرانِ البشريِّ، وهذا الجهدُ المنظَّمُ المتواصلُ، لا يمكنُ أنْ يجريَ في فراغٍ، إذ ينبغي توفيرُ البيئةِ السليمةِ للباحث لكي تساعدّهُ في إنتاج بحثٍ علميٍّ محكمٍ، ومن ثم يأتي دورُ المؤسسةِ الرسميّةِ لتساعدَ في إخراج نتائجِ البحوثِ العلميّةِ من الأروقة النظريّةِ إلى ميادينِ التطبيقِ، حيث الارتقاءُ المباشرُ بالحياةِ والحضارةِ والعمرانِ الإنسانيّ (2015، وكالة معا الإخباريّة). ويحدّدُ د. محمد نضال الريس معنى البحثِ العلميّ بأنه "كلُّ دراسةٍ تتمُّ أو بحثٍ أوِ اختبارٍ يجري عن موضوعٍ أو مشكلةٍ على أسسٍ علميّةٍ للتوصُّلِ إلى نتائجَ موضوعيّةٍ" (فؤاد عبد المطلب، "الترجمةُ والبحثُ العلميُّ"، مجلة التعريب، 1998، ص 37). ويشهدُ العالمُ في بدايةِ القرنِ الواحدِ والعشرينَ إنجازاتٍ بحثيّةً مؤثّرةً. فقد أسهمَ باحثون من بلدانٍ كثيرةٍ في إنجازاتِ هذه الحقبةِ الجديدةِ، حقبةٌ انمازتْ بمشاركةِ قوميّاتٍ متعدّدةٍ وبتعاونٍ واسعِ المدى. واضطلعتِ العولمةُ والشبكةُ العالميّةُ للمعلوماتِ والتقنيّةِ الرقميّةِ بدورٍ مهمٍّ في التمكينِ لهذه الحقبةِ الجديدةِ. بيد أنَّ ثمة شيئاً آخرَ أكثرَ جوهريّةً يعتملُ ضمنَ هذه الحركةِ أيضاً. ففي تلك الجهودِ العلميّةِ كلِّها يكمنُ سعيٌ قديمٌ لتبادلِ المعرفةِ والأفكارِ تبادلاً يمكنُ تحقيقُهُ بوسيلةٍ واحدةٍ مشتركةٍ، هي اللغةُ الإنجليزيّةُ. ويناقشُ هذا البحثُ نهوضَ الإنجليزيّةِ بكونها لغةً مشتركةً في العلم والتقنيّةِ منذ بدايةِ تسعينياتِ القرنِ العشرينَ، ويحاولُ استكشافَ دلالةِ الاستعمالِ المتنامي لها من ملايينِ البشرِ غيرِ الناطقينَ بها أساساً.

2. العلمُ والحاجةُ المستمرَّةُ إلى لغةٍ عالميّةٍ: العلاقةُ بين الإنجليزيّةِ والبحثِ العلميّ

وَلَّدَ النهوضُ البارزُ للإنجليزيّةِ بشيوعها في مجال التواصلِ العلميّ الكثيرَ من التعليقاتِ في السنواتِ الأخيرةِ. فبدأتِ افتتاحياتُ صحفٍ ومقالاتٍ تظهرُ منشورةً في الستينياتِ من القرنِ

الماضي، ولم تلحظِ انتشارَ الإنجليزيَّةِ في بلدانٍ عدةٍ فحسبُ، بل راحتْ تدافعُ عنه أيضاً. لكن الكتبَ التي تدرسُ في هذا الموضوعِ أخذتْ تبرزُ في منتصف التسعينياتِ من القرن نفسِهِ. وكان آنذاكَ كتابُ ديفيد كريستال "الإنجليزيَّةُ لغةٌ عالميَّةٌ" من أهمِّ الكتبِ التي وصفتْ حالةَ اللغةِ الإنجليزيَّةِ، وجدَّدتِ التوقُّعاتِ في بدايةِ القرن الجديدِ على هذا النحوِ: "في العام 1950، كانت أيَّةُ فكرةٍ عنِ الإنجليزيَّةِ بكونها لغةً عالميَّةً مجرَّدَ إمكانيَّةٍ نظريَّةٍ غامضةٍ ومبهمةٍ... مرَّتْ خمسون عاماً، والإنجليزيَّةُ العالميَّةُ موجودةٌ على شكل حقيقةٍ سياسيَّةٍ وثقافيَّةٍ... فهل تطوَّرتِ الأمورُ إلى درجةِ أنَّ صعودَ الإنجليزيَّةِ بكونها لغةً عالميَّةً لا يمكنُ إيقافُه؟"، وأدركَ كريستال بعد ستِّ سنواتٍ وحسبُ أنَّ موضوعَ كتابِه أصبح حاسماً وملزماً بالإجابة عن سؤالِه الأساسيِّ حين نشرَ الطبعةَ الثانيةَ من الكتاب: "أصبحَ نموُّها كبيراً جداً فلا شيءَ يمكنُ أنْ يوقفَ انتشارَها المستمرَّ بعدِّها لغةَ تعارفٍ عالميَّةً، على الأقلِّ في المستقبل المنظورِ" (كريستال، الإنجليزيَّة لغة عالميَّة، 2003، ص 10). ثم انتشرتْ هذه اللغةُ وغدتْ مهارةً أساسيَّةً في معظم الحقولِ العلميَّة. وتوازتْ سيطرةُ الإنجليزيَّةِ في مجالات العلومِ مع سيطرتها في مجالاتٍ أخرى، مثلِ الفنونِ والآدابِ. وفي الواقع، يذكرُ الكثيرونَ من غير الناطقينَ الأصليينَ بالإنجليزيَّة أفلاماً وبرامجَ تلفزيونيَّةً بكونها بدايةَ احتكاكِهم أو معرفتِهم باللغة الإنجليزيَّةِ. فقد أصبحتِ الإنجليزيَّةُ لغةً كونيَّةً في المؤتمراتِ العلميَّةِ الدوليَّةِ وفي المناطق التي لا يُنطقُ فيها بالإنجليزيَّةِ. ومن ثَمَّ أخذتْ أعدادُ الدورياتِ والمقالاتِ المكتوبةِ بها تزدادُ بصورة مطردةٍ. وبدت مؤثِّرةً في طبيعة العلاقةِ بين الزمانِ والمكانِ، وغيَّرتِ المعلوماتُ المتدفِّقةُ في وسائل النشرِ الإلكترونيَّةِ معنى الزمان والمكانِ في التفاعل الاجتماعيِّ والعلميِّ والثقافيِّ (نوفل حاج لطيف، الحدود – إشكاليَّة/العلاقة/بين/العالمي/والمحلي، hekmah.org). وبالنتيجةِ، غدا معظمُ التواصلِ العلميِّ يجري بالإنجليزيَّةِ بين المتحدِّثينِ غيرِ الأصليينَ بها. وفي سياق مناقشةِ تاريخ لغاتِ التواصلِ العلميِّ، كان نهوضُ الإنجليزيَّةِ سريعاً بالمقارنة بها، وهو يشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ نهوضَ اللغةِ العربيَّةِ في الألفيَّةِ الأولى. ونوردُ في عجالةٍ اقتباساً وثيقَ الصلةِ له دلالةٌ تاريخيَّةٌ بالنسبة إلينا، نشرَه ريتشارد سوذرن في كتابه: "النظراتُ الغربيَّةُ إلى الإسلام في العصورِ الوسطى" (1963)، ظهرَ أساساً في عملٍ عنوانُه "الإشارةُ المضيئةُ" لرجلٍ يُدعَى بول الفاروس كتبَه بالإسبانيَّة في منتصف القرنِ التاسعِ، يشيرُ إلى سرعة انتشارِ العربيَّةِ بين الإسبانِ إثرَ عقودٍ قليلةٍ من الفتح:

> أحبَّ المسيحيونَ قراءةَ أشعار العربِ وقصصض حبِّهمْ، ودرسوا أعمالَ الفقهاء والفلاسفةِ العربِ لا ليردُّوا عليهم بل ليتعلَّمُوا العربيَّةَ الفصحى والجميلةَ... كان العلماءُ الشبانُ المسيحيُّونَ الموهوبونَ يقرؤونَ ويدرسون كتبَ العربِ بحماسة... لقد نسوا لغتَهم. وإذا كان هناك بعضُ من يستطيعُ كتابةَ رسالةٍ باللاتينيَّة إلى صديقٍ، فقد كان هناك آلافٌ يستطيعون

أن يعبِّروا بفصاحةٍ عن أنفسهم مستعملينَ اللغة العربيّة وأن يكتبوا بهذه اللغةِ أشعاراً تفوقُ أشعارَ العربِ أنفسِهم (المجلة الدوليّة لدراسات اللغة العربيّة وآدابها، مج2، ع6، ص77-98)*.

وتلك السرعة في الانتشار والاستعمالِ جعلتِ اللغةَ العربيّةَ مرشّحةً لأنْ تكونَ لغةً مشتركةً للعلم مثلما كانتْ عليه، ومن قبلِها اللاتينيّةُ والإغريقيّةُ. فجلبتْ هذه اللغاتُ وغيرُها فوائدَ عظيمةً في الماضي جعلتِ العلم عالمياً، وواجهتْ صعوباتٍ أيضاً. وقد يرى البعضُ أنَّ الإنجليزيّةَ مشتركةٌ كأيّةِ لغةٍ وصلتْ على نحوٍ واضحٍ إلى مرحلة اللغةِ المشتركةِ للعلم بسبب تطوُّراتٍ تاريخيّةٍ معيَّنةٍ، وهي بالتأكيد لم تصلْ إلى تحقيقِ ذلك الدورِ العالميّ بخصائصَ متأصِّلةٍ فيها.

وتظهرُ مراجعةُ البياناتِ والآراءِ حول متحدِّثي اللغةِ الإنجليزيّةِ وبلدانهم، والتعليمِ العالي الجاري بها والبحثِ الذي يتمُّ بها أنَّ المتحدِّثينَ أصلاً بها يتباطؤون في سيرهم خلفَ بقيّةِ العالمِ الثنائيّ أوِ المتعدِّدِ اللغاتِ. ويستدعي ذلك مناقشةَ العواملِ المؤيِّدةِ أوِ المناوئةِ للإنجليزيّة العلميّةِ العالميّةِ، وهجرةِ الأدمغةِ، ومشكلةِ استئصالِ اللغاتِ المحليّةِ أو قمعِها، وهيمنةِ الموادِّ المرئيّةِ. ومع ذلك يجبُ ألّا تُحسَبُ الهيمنةُ أمراً واقعاً حقاً، بل ينبغي تشجيعُ التواصلِ باللغات المحليّةِ، وألا يجريَ تفضيلٌ مقصودٌ للنشر بالإنجليزيّةِ عالمياً لأنَّه أمرٌ أساسيٌّ وموجودٌ عملياً. ويمكنُ الإشارةُ إلى وجود مخاوفَ من قمعٍ ثقافيٍّ للغاتِ المحليّةِ من دون مُسوِّغٍ غالباً. وللترجمة الآليّةِ خصوصاً، دورٌ في هذا السياقِ، بيد أنَّ هذه الأخيرةَ لمّا تصلْ بعدُ إلى دقّةٍ تخوّلُها تسهيلَ النشرِ العالمي المنصفِ؛ لأنَّهُ يكثُرُ تحوُّلُه إلى الربح. إذ أصبحتْ قواعدُ بياناتِ المرجعيّةِ Scopus و Clarivate تنحازُ نحو هذا النوعِ من النشر للأبحاثِ المكتوبةِ بالإنجليزيّة، واتسعتِ الرؤيةُ العالميّةُ لأيّة مجلّةٍ مقبولةٍ في تلك القواعدِ البيانيةِ. والحقُّ أنَّ النشرَ في هذا النوعِ من المجلاتِ لا يشيرُ دائماً إلى التميُّزِ بل إلى عواملَ تصنيفيّةٍ وربحيّةٍ. ولذلك راحتِ اللغةُ الأنجلو-أمريكيّة تسودُ في ميدان النشرِ العلميّ، على أيدي محرّرينَ ومترجمينَ وناشرينَ يرنو عددٌ غيرُ قليلٍ منهم إلى أهدافٍ ربحيّةٍ وتسويقيّةٍ، وتميلُ هذه الإنجليزيّةُ تحديداً إلى قمع النماذجِ غيرِ القياسيّةِ من الإنجليزيّة الموجودةِ دائماً في الأماكنِ كلِّها. ويقولُ واقعُ الحالِ بأنَّه يجبُ قبولُ هذه النماذجِ أوِ النسخِ الشائعة للغايةِ وتكييفُها أوِ الاعتيادُ عليها في المستقبل. فقد حلَّتْ لغاتٌ جديدةٌ مكانَ اللغاتِ المشتركةِ السابقةِ أو لغاتُ العلمِ التي كانت سائدةً، وهذا يجعلُنا نتساءلُ عنِ الدور المستقبليّ للإنجليزيّة في هذا الوضعِ المثيرِ.

* ظهر هذا النصُّ مترجماً إلى الإنجليزيّة، وهو من ترجمتي إلى العربيّة في بحثٍ نُشر تحت عنوان "الفتوحاتُ الإسلاميّةُ وخلق بعضِ الأفكار عن أوروبا في الآداب الغربيّة " (العنوانُ الأصليُّ "الإمبرياليّةُ الإسلاميّةُ وخلق بعضِ الأفكار عن أوروبا في الآداب الغربيّة") في المجلة المذكورة. وظهر هذا النصُّ مترجماً إلى العربيّة في كتابٍ يحملُ عنوان، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمه وقدم له د. رضوان السيد، وصدر في بيروت. عن دار المدار الإسلامي 2006، انظر، ص58-59.

ويتجلَّى الغرضُ الرئيسُ من النقاش هنا في شرح أسبابِ تطوُّرِ الإنجليزيَّةِ إلى لغة مشتركةٍ للعلوم والسبيلِ الذي ستسلكُه مستقبلاً بكونها كذلك. إذ يتحدَّثُ بها اليوم زُهَاءُ ملياري شخصٍ في أكثرَ من 120 بلداً بدرجاتٍ متفاوتةٍ من الأهليَّة، لكنْ جميعُهم يستطيعونَ الإفصاحَ عمَّا يفكِّرونَ به. والتوجُّهُ نحو إحرازِ المزيدِ من الكفايةِ في استعمالِ هذه اللغةِ يزدادُ بسرعةٍ في بلدان كثيرةٍ وخصوصاً في الصين. (مونتغمري، هل يحتاج العلمُ إلى لغة عالميَّةٍ، 2014، المقدمة، ص 11). على أيَّة حال، أسهمتْ عواملُ في هذا التطوُّرِ مثلُ الثورة الصناعيَّةِ التي انطلقتْ من إنجلترا؛ والاستعمارُ الناجمُ من هذه الثورة، والذي تركَ وراءَه الإنجليزيَّةَ في بلدانٍ مؤثِّرةٍ دولياً مثلِ الولاياتِ المتحدة وكندا وأستراليا والهند؛ والعولمة التي نشأتْ عموماً بقوة الدفعِ الأمريكيَّةِ في العشرين سنةً الماضيةِ، التي أدتْ إلى نموٍّ واضحٍ في أشكال الاتصالِ الدوليّ كلِّها، في العلوم، والشبكةِ العالميَّةِ للمعلوماتِ أو الإنترنت، والتي يجري التواصلُ فيها بالإنجليزيَّة غالباً؛ وأشكالِ الثقافة الشعبيَّةِ، التي أصبحتْ ظاهرةً عالميَّةً الآن: الأفلامُ والموسيقى والتلفزيون والملابسُ ونحو ذلك. فمنذ بدايةِ خمسينياتِ القرن العشرينَ، أخذتِ المنشوراتُ العلميَّةُ تظهر بالإنجليزيَّة في كثيرٍ من البلدان. وبعدها ازدادَ استعمالُ الإنجليزيَّة على نحو ثابتٍ، والعِلمُ الأمريكيُّ هو العاملُ الرئيسُ في ذلك. وفي العام 1980، أصبحتِ الإنجليزيَّة لغةَ 70% من النشر العلميّ، وبعد عشر سنواتٍ فقط وصلتْ نسبةُ استعمالها إلى 90% في معظم مجالاتِ البحثِ العلميّ (ص 42). لذلك كانت هذه المعلوماتُ والحقائقُ بمنزلة إجاباتٍ متتاليةٍ غير مباشرةٍ عنِ السؤال الرئيسِ المثارِ، وأتى جوابُه الصريحُ في النهاية، اللغة الإنجليزيَّة عالميَّةٌ. وقد يتساءلُ المرءُ عند ذلك عن كيفيَّةِ استمرار الأمور، وعنِ احتمالاتٍ أو بدائلَ أخرى، مثلِ بروز لغةٍ علميَّةٍ أخرى، أو قيامِ الإنجليزيَّة في المستقبل بتبديلاتٍ في صيغها أو مصادرِها الأساسيَّةِ. ويمكنُ مناقشةُ هذه المسائلِ على أنحاءٍ مختلفةٍ ولكن بطريقة موضوعيَّةٍ ومقنعةٍ.

لا يمكنُ للعلم أن يوجدَ من دون لغةٍ، ولعلَّ هذه إحدى الحقائقِ التي يثبتُها تاريخُ العلمِ بالإشارة إلى لغاتِ العلمِ السائدةِ قديماً. ويمكنُنا هنا توجيهُ سؤالٍ رئيسٍ لجميع المهتمّينَ بالعلاقة بين العلم واللغةِ والزمانِ والمكانِ حالياً ومستقبلاً. لقد أصبحتِ الإنجليزيَّةُ لساناً عالمياً مستعملاً في العمل العلميّ: قد نقبلُ هذه الحقيقةَ ونؤيِّدُها، أو نرثي لها، أو نبدي امتعاضَنا تجاهها، لكنَّنا لا يمكنُ أن ننكرَ وجودَها أو نغفلَ تأثيرَها بتجاهلِنا إياها، والإشارةُ فحسب إلى وقائعَ مرغوبٍ فيها. ولا ينبغي التسليمُ وأن ننبريَ على نحو تلقائيٍّ للاحتفاء بمكانة الإنجليزيَّةِ في العلم؛ فإنَّنا نرغبُ كما يظهرُ في مواجهة الواقع العلميّ واستكناهِ ما يعنيه ذلك بالنسبةِ إلى حاضر العلمِ والعلماءِ ومستقبلِهم عموماً وفي بلداننا أيضاً. فيمكننا النظرُ إلى الطريقةِ التي وجدَ بها هذا الوضع، وإلى كيفيَّةِ حركتِه، وميزاتِه ومساوئِه، وتأثيراتِه في اللغات الأخرى. لذلك من الممكنِ وصفُ التساؤلِ بأنه تحريضيٌّ، بمعنى أنَّ بعض الدارسينَ والباحثينَ حين ينظرون في هذه الأطروحة سيجدونَ أنَّ اللغةَ العالميَّةَ

أمرٌ ضروريٌّ بالنسبة إلى العلم، أو أمرٌ مقلقٌ وربما فيه شيءٌ من التسلطِ أوِ الروحِ العدائيَّةِ. ولعلَّ النظرَ إلى الفكرة الرئيسة من هذه الزاويةِ غيرُ صائبٍ. فالمراقبُ المحايدُ لا يقومُ بالدفاع عنِ الإنجليزيَّةِ هكذا بصورة مسطَّحةٍ، إنه يُقِرُّ بوضعها الحاليِّ من دون الدخولِ عميقاً في مناقشة تضميناتِه المتعدِّدةِ. فكما يبدو جلياً أنَّ دفاعَه سيتركزُ في ضرورة توفيرِ العلم بالنسبةِ للعلماء كلِّهم وفي الأماكنِ كلِّها، خصوصاً في البلدان الناميةِ. كما كان صحيحاً في الماضي، وجودُ لغةٍ قابلة للتداول من أطراف عدةٍ أمرٌ حاسمٌ بالنسبة إلى العلم والعلماءِ حالياً. وتجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ المخاوفَ حول اللغةِ العالميَّةِ ناجمةٌ عنِ الظنِّ بأنَّ الإنجليزيَّةَ أداةٌ ثقافيَّةٌ إمبرياليَّةٌ للهيمنةِ الأنجلو-الأمريكيَّة. وعبَّرَ غيرُ باحثٍ عن مثل هذه المخاوفِ في دراساتٍ رصينةٍ (روبرت فيليبسن، الإمبرياليَّةُ اللغويَّةُ، 1992؛ وسوريش كاناغاراجاه، مقاومةُ الإمبرياليَّةِ اللغويَّةِ في تعليم الإنجليزيَّة، 1999؛ وديفيد كريستال، الإنجليزيَّةُ لغةٌ عالميَّةٌ، 1997، 2003).

ومع التأكيد أنَّ هذا المستوى من الهيمنة للغةٍ بعينها لم يسبقْ أنْ حدث تاريخياً، يمكنُنا النظرُ إلى التاريخ للاطلاع على اللغاتِ المشتركةِ السابقةِ. يقولُ مونتغمري في فكرة استهلاليَّةٍ: "إنَّ عدمَ معرفةِ ما جرى في الأزمنة السابقةِ يعني أنْ تظلَّ طفلاً دائماً. إنْ لم يستفدْ من جهود العصورِ الماضيَّةِ، فلا بدَّ أن يظلَّ العالمُ دائماً في طفولة المعرفةِ" (177). فمن المعروفِ أنَّ تطوُّرَ العلم في مصرَ القديمةِ أو بلادِ اليونان أوِ الهندِ أوِ الصينِ أوِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ لاحقاً أو في أوروبا العصورِ الوسطى وعصرِ النهضةِ، إنما كان دائماً يعتمدُ بشكلٍ أو بآخرَ على وجود لغةٍ مشتركةٍ. فورثتْ تلك الثقافاتُ تراثَ الحضاراتِ القديمة وكيّفتْهُ بصورةٍ مختلفةٍ تتناسبُ ونسيجَها العقليَّ والفكريَّ لأنها مولودةٌ جميعاً من رحمٍ واحدٍ. ويذكرُ المؤرخُ عبد الحليم منتصر أنَّ "الباحثَ المنصفَ لا يمكنُ أن يُغفِلَ أمرَ المدنياتِ القديمةِ التي سبقتِ العصرَ الإغريقيَّ وتقدمتْ عليهِ في التاريخِ، إذ لا يمكنُ أنْ تكونَ المدنيَّة الإغريقيَّة قد نشأتْ فجأةً، وبمعزلٍ عنِ المدنياتِ الأخرى من بابليَّةٍ وآشوريَّةٍ ومصريَّةٍ فرعونيَّةٍ، و كانتْ بينَ الإغريقِ والمصريينَ القدماءِ صلاتٌ وتجاربُ وحروبٌ، وتركَ المصريونَ من الآثارِ والبردياتِ ما يدلُّ على تقدمِهم في كثيرٍ منَ العلومِ والفنونِ من هندسةٍ وتخطيطٍ وتعدينٍ وفلكٍ... وأنصفَ هيرودوتس الملقب بأبي التاريخ هذه الحضاراتِ لمَّا قالَ إنَّ معظمَ فلاسفةِ الإغريقِ القدامى أمضَوا جانباً من حياتِهم في مصرَ وبلادِ الرافدين"(عبد الحليم منتصر، تاريخُ العلم ودورُ العلماء العرب في تقدُّمِه، ص 2-3). وهذا ما جعلَهُم يطَّلعونَ على أصولِ هذه الحضاراتِ ومظاهرِها الفكريَّةِ والماديَّةِ، وساعدَهُم على بناءِ حضارتِهم لاحقاً.

وأما العربيَّةُ وانتشارُها بكونها لغةَ تواصلٍ جديدةً لها امتدادُها الكبيرُ يمكنُ القولُ بأنَّ التفاعلَ الثقافيَّ والعلميَّ واللغويَّ توسَّعَ مع ظهورِ الإسلامِ. فمعَ نجاحِه في القرنِ السابعِ الميلاديّ وتوسُّعِ أراضيْهِ على نحوٍ مذهلٍ، أصبحَ معظمُ المنطقةِ التي غزاها الإسكندرُ المقدونيُّ وسكنَها المسيحيونَ النسطوريونَ لاحقاً تحتَ الحكمِ العربيِّ الإسلاميّ. وحدثَ ازدهارٌ في التطلُّعِ الفكريّ والعلميّ في العهدينِ الأمويّ والعباسيّ وبلغَ ذروتَهُ في أيامِ المنصورِ وهارونَ الرشيدِ والمأمونِ في القرنينِ الثامنِ والتاسعِ. وكانتْ أسبابُ هذا الازدهارِ متعددةَ الأشكالِ. وتبدأُ بالحقائقِ الاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسياسيَّةِ للدولة الجديدةِ في مرحلةِ تعزيزِها الأساسيَّةِ. وتتعلَّقُ هذه الحقائقُ أيضاً بالتقاليدِ الفكريَّةِ المتنوعةِ التي تجمَّعتْ وتفاعلتْ آنذاك تحتَ حمايةِ السقفِ العربيّ الإسلاميّ. وبحلولِ القرنِ التاسعِ أصبحتِ العربيَّة اللغةَ الرسميَّة في الأراضي التي امتدتْ من حدودِ الصينِ إلى المحيطِ الأطلسي. وتفاعلتِ العربيَّة مع اللغاتِ المحليَّة في الشرقِ الأوسطِ وشمالِ أفريقيا ليحدثَ تنوعٌ متطوّرٌ من اللهجاتِ المحليَّة غيرِ المفهومةِ فيما بينها تقريباً قبلَ العصرِ الحديثِ بمدةٍ، وذلك على نحوٍ مشابهٍ للغاتِ الرومانسيَّة التي تفرعتْ من اللغةِ اللاتينيَّة، لكنَّ العربيَّةَ الفصحى المكتوبةَ استمرتْ لغةَ العلمِ والتواصلِ النصيّ في المناطقِ الوسطى والغربيَّةِ من ديار الإسلامِ. فدخلتْ كلماتٌ أعجميَّةٌ في العربيَّة، واكتسبتْ كلماتٌ عربيَّةٌ قديمةٌ دلالاتٍ جديدةً وشاعتْ بكثرة التداولِ، وأصبح لكلماتٍ كثيرةٍ مترادفاتٌ، عاش بعضُها زمناً ثم تراجعَ واندثرَ، واستمرَّ بعضُها مستعملاً مع مرادفه الأصليّ (شفيق بنات وفؤاد عبد المطلب، "الثنائيَّة اللغويَّة"، 2015، ص 11،19). وكما كانتْ حالُ اللغةِ اللاتينيَّة، ظلتْ تُعلَّمُ في المدارسِ، وتُستعمَلُ في الدواوينِ الرسميَّة، لكنها تراجعتْ بكونِها لهجةً محليَّة. وإنْ حصلَ هذا التراجع تدريجياً، فليس بوسعِ أحدٍ أن ينكرَ تاريخَ اعتمادِ أوروبا على اللاتينيَّة من عصر النهضةِ مروراً بعصر الأنوارِ ووصولاً إلى العصر الحديثِ.

ومع صعودِها حلَّتِ العربيَّةُ الفصحى مكانَ لغاتٍ عدةٍ، وإنْ أثَّرَ بعضُ هذه اللغاتِ فيها على نحوٍ واضحٍ، فإنَّ المكتوبةَ منها غدتْ وسيلةً للطلابِ والمعلمينَ والعلماءِ للوصولِ إلى مجموعةٍ هائلةٍ من الكتاباتِ، والمساهمةِ في إغنائها. يقولُ أحدُ الباحثينَ بأنَّ"قوةَ اللغةِ العربيَّة في التواصلِ بكونِها أداةً للسانِ والعلمِ العربيَّين نجدُها من بينِ اللغاتِ الحيَّةِ التي استطاعتْ – على الرغم من تعدُّدِ صراعِها مع الآخرينَ تارةً ومع نفسِها تارةً أخرى – في المحافظةِ على صورتِها التي انتهتْ إلينا قبلَ مبعثِ الإسلامِ بقرنينِ؛ فلم تُصبْها شيخوخةٌ قاهرةٌ تأتي على ذاكرتِها أو تشوّهُ روحَها، فازدادتْ على طولِ لياليْها جدةً وشباباً مستمرَّين"(مجلة العربي، 2016، العدد 696، 28). ولكونِها لغةَ القوةِ السياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والعسكريَّةِ والثقافيَّةِ في النهايةِ، حلَّتْ بكفاءةٍ وأهليَّةٍ مكانَ السريانيَّةِ واليونانيَّةِ وعددٍ من اللغاتِ الأخرى، كما فعلتِ اللغةُ اللاتينيَّةُ والكلاسيكيَّةُ من قبلُ. ومن الصحيحِ القولُ: إنَّها تأثرتْ بكثيرٍ من اللغاتِ على نحوٍ كبيرٍ بكونِها لغةً محكيَّة في العالمِ الإسلاميّ

بأسرِهِ بسببِ توسُّعِها المتسامحِ، بيدَ أنَّ ذلك جعَلَها لغةً هائلةً للمعرفةِ المدونةِ في مناطقَ شاسعةٍ. فملأتْ أعمالُ مؤلفِيْها وأدبائِها ومترجمِيْها المكتباتِ الكبيرةَ التي تمَّ جمعُها من بغدادَ إلى طليطلةَ، وهي أماكنُ يفصِلُ بينَها آلافُ الأميالِ والكثيرُ من الثقافاتِ السابقةِ. ويحتاجُ استقصاءُ التفاعلِ بينَ اللغاتِ والثقافاتِ التي احتكَّتْ بها العربيَّةُ وثقافتُها على مرِّ العصورِ إلى دراساتٍ مستقلةٍ ومستفيضةٍ. ويخبرُنا التفاعلُ بين لغاتِ التواصلِ القديمةِ الكثيرَ عنِ التطورِ اللغويِّ والثقافيِّ اللاحقينِ، لأنَّ الجهلَ بما يجري في الأزمنةِ السابقةِ يضطرُّنا للبقاءِ في عزلةٍ والبدايةِ من جديدٍ دائماً. وإنْ لم تتمَّ الاستفادةُ من عملياتِ التأثرِ والتأثيرِ في العصورِ الماضيَّة، فإنَّ ذلك يعني أنْ نعيشَ في أحاديَّةِ المعرفةِ أو طفولتَها. وفي النهايةِ، قد يكونُ من المفيدِ إيرادُ ملاحظةِ المفكرِ والمستشرقِ البرتغالي أرنولد شوبرت: "أجِدُ اللغةَ العربيَّة لم تتقهقرْ قطُّ فيما مضى أمامَ أيِّ لغةٍ من اللغاتِ التي احتكتْ بها، وأنَّها ستحافظُ على كيانِها في المستقبلِ كما فعلتْ في الماضي؛ لأنَّ لها مرونةً تُمكِّنها من التكيُّفِ وفقاً لمقتضياتِ العصرِ، وأشهدُ أنَّ اللغاتِ الأوروبيَّة فشِلتْ خلالَ قرنٍ كاملٍ أو يزيدُ في أنْ تسيطرَ على "العربيَّة" أو تُضعِفَ مكانتَها". (اقتباس لأرنولد شوبرت، *مجلة العربي*، 2016، العدد 696، ص 35). وكما يؤكدُ أيضاً الأستاذُ الأمريكي ريتشارد كوتهيل أهميَّة التاريخِ الطويل للغة العربيَّة وغناه، ويضيف فيما يتعلَّقُ بمستقبلها أنها: "بفضل الأقوامِ التي نطقتْ بها وبداعي انتشارها في أقاليمَ كثيرةٍ واحتكاكِها بمدنياتٍ مختلفةٍ ونمتْ إلى أن أصبحتْ لغةً مدنيَّةً بأسرها بعد أن كانت لغةَ قبيلةٍ واحدةٍ. وإنِ اختلفَ اللسان المغربيُّ عنِ المصريِّ بقدر ما يختلفُ اللسانُ المصريُّ عنِ الحضرميِّ والحضرميُّ عنِ البغداديِّ، فاللغةُ واحدةٌ والخطُّ واحدٌ. فالعربيَّةُ من هذا القبيل أشبهُ بالإنجليزيَّة التي اجتازتِ البحارَ، وقطعتِ القاراتِ، وغدت أساساً لمدنيَّةٍ جامعةٍ" (فتاوى كبار الكتاب والأدباء، 2013، ص29).

وثمةَ نقاطٌ مهمةٌ لها علاقةٌ بموضوعنا، وأغفلنا الخوضَ فيها عن قصد، وربما كان لهذا مسوِّغاتُه، لأن التطرُّقَ إليها يستدعي نقاشاً إضافياً يتَّصفُ بشيءٍ من الخصوصيَّةِ. فلا بدَّ من إنعام النظر في تضميناتِ حيازةِ الإنجليزيَّةِ لموقعِها العالميِّ وهيمنتِها على مجالات البحثِ العلميِّ، الآن ومستقبلاً، وإلى أيِّ حدٍّ سيفيدُنا جميعاً. إذ بإمكان المرءِ عموماً أن يتَّفقَ مع الرأيِ القائلِ إنَّ الإنجليزيَّةَ ستقدِّمُ فوائدَ جمَّةً بكونها مشتركةً في العلم والتقنيَّةِ. وإنِ استُعمِلَ مصطلحُ "علم" في النقاش على نحو عامٍ، لأنَّهُ يحدِّدُ العلمَ أوِ البحثَ العلميَّ في الحقول التي نذكرُها أكثرَ من غيرها مثلُ علومِ الحياةِ والطبيعةِ والطبِّ والصيدلةِ والفيزياءِ والرياضياتِ والهندسةِ والطاقةِ و ما يتعلقُ بها من فروعِ العلومِ التطبيقيَّةِ أوِ العمليَّةِ أوِ التقنيَّةِ، يجبُ ألا تغيبَ عنَّا أهميَّةُ العلومِ الاجتماعيَّةِ أوِ التاريخيَّةِ أوِ الإداريَّةِ أوِ الفنيَّةِ، أو الإنسانيَّةِ من آدابٍ وفنونٍ؛ أي العلومِ النظريَّةِ أوِ الحقولِ الإبداعيَّةِ أوِ الثقافيَّةِ أو ما يتعلقُ بها من نشاطاتٍ وأنواعٍ كثيرةٍ لا مجالَ لحصرِها هنا. إذ كثيراً ما يحدثُ في أدب البحثِ العلميِّ أن يسميَ باحثون حقولاً معرفيَّةً معيَّنةً من اختصاصاتِهم فيجعلونها

في قلب العمليَّةِ البحثيَّةِ، ويُقصُونَ اختصاصاتٍ أخرى، بقصدٍ أو غيره، ولا يعرفون الكثيرَ عن طبيعتِها ووظائفِها، أو يحاولون أحياناً وضع تحديداتٍ تُدخِلُ معارفَهم ضمن الدائرة وتستبعدُ بشكلٍ أو آخرَ نشاطاتٍ أو عملياتٍ أو حقولاً معرفيَّةً أخرى (عبد المطلب، "الترجمة والبحث العلمي"، 1998، ص37). ومناقشةُ هذا في سياق الموضوعِ الذي نطرحه ستدفعُنا إلى النظر أيضاً في وضع الإنجليزيَّةِ بكونها عالميَّةً في علاقتها بالعلوم الإنسانيَّة وآدابها. فإنْ أنعمنا النظر فيما سيحلُّ بالآداب الراقيةِ المكتوبةِ بلغاتها القوميَّة في معظم بلدانِ العالم أي ما يُطلقُ عليه الأدبُ العالميُّ، فقد لا تكونُ الرؤيةُ واعدةً كثيراً. فهيمنةُ الإنجليزيَّةِ على النشر العالميِّ وازديادُها في قادماتِ الأيام، يعني أنَّ حجم الترجماتِ في سائر اللغات سيتناقصُ عموماً أمام الترجماتِ من الإنجليزيَّةِ وإليها. ومما يعنيه هذا، أنَّ الذين يكتبون بها ستسنحُ لهمُ الفرصةُ للوصول إلى جمهورٍ عالميٍّ وستتمتَّعُ أعمالُهم بمزيَّةِ الأعمالِ الكلاسيكيَّة أكثرَ من غيرهم. ويبدو جلياً أنَّ النشرَ أصبح صناعةً ثقافيَّةً قويَّةً تتحرَّكُ بصورة دائمةٍ وسريعةٍ.

أصبحتِ الإنجليزيَّة، شئنا أم أبينا، لغةَ الأدبِ العالميِّ والفنِّ والترجمةِ والتعليمِ والسياحةِ والعلاقاتِ الدوليَّةِ وسائرِ وجوهِ التواصلِ العالميّ. وهي أسرع اللغاتِ نمواً في العالم، مع أناسٍ يتحدَّثونَها أكثرَ من ذي قبلُ. ولايمكننا نحنُ لكوننا عرباً أو قراءً بالعربيَّةِ، أنْ نديرَ ظهورَنا إلى قضيَّةِ العلمِ الحديثِ واستعمالِ الإنجليزيَّةِ لغةً عالميَّةً، ولا بدَّ من العنايةِ بها تعليمياً بكونها اللغةَ الأجنبيَّةَ الأولى كي نتمكَّنَ من الحضور والمشاركةِ في البيئةِ العلميَّةِ العالميَّةِ، من دون نسيانِ اللغاتِ الأخرى، وأخذِ حقائقِ الترجمةِ والتعريبِ من العربيَّة وإليها في هذه الحقبة بالحسبانِ. واعتمادِ العربيَّةِ أداةً أساسيةً حاسمةً في البحثِ العلميِّ في مراحلِ التعليمِ كلِّها، وخصوصاً التعليمَ الجامعيَّ. ويحضرُنا هنا الادّعاءُ القائلُ إنَّ تحقيقَ التقدُّمِ العلميّ يقتضي التخلِّيَ عنِ اللغةِ الفصحى وتعقيداتِها، فمثلُ هذا الرأيِ يستحقُّ الرثاءَ وتاريخُ اللغتينِ اليابانيَّةِ والصينيَّةِ يدحضُ ذلك؛ ويكتبُ أحدُ الدارسينَ موضِّحاً: "ولنا في ذلك عبرةٌ في الدولِ التي استطاعتِ النهوضَ من الفقر والدمارِ، فهل اضطرَّ اليابانيُّ إلى التخلِّي عن نظام كتابِته المعقَّدِ جداً فيضطرُّ الطلبةُ إلى حفظ بضعةِ آلافٍ من الرموزِ المرسومةِ كي ينشئ إمبراطوريَّةً تقارعُ الولاياتِ المتحدةَ، ولم يتخلَّوا عنها حين سعَوا إلى النهوضِ التقنيّ والاقتصاديّ إثر خسارةِ الحربِ؛ وقد وصفَها معظمُ الدارسين بالمعجزةِ... وكذلك حالُ تعقيدِ اللغةِ / اللغاتِ في الصين التي لم تحتجْ إلى التخلِّي عنها كي تبنيَ اقتصاداً وجيشاً تحسبُ له الدنيا ألفَ حسابٍ. فإنْ كنَّا نعاني من التخلُّفِ فلنكنْ صادقينَ في بيانِ أسبابه، الماديَّةِ والاجتماعيَّةِ، بدلاً من أن نرميَه على لغةٍ ذاتِ خصوصيَّةٍ، كمثل مراهقٍ يحسبُ الناسَ يكرهونه بسبب لونِ قميصِه، والواقعُ أنَّه مكروهٌ لسوءِ خُلقِه" (الطيب الحصني، 10 نوفمبر 2021، raseef22.net).
باختصار، أبعادُ القضيَّةِ مهمَّةٌ كلُّها ولا بدَّ من إحداث توازنٍ بين أطرافها: العلمُ واستعمالُ الإنجليزيَّةِ بكونها لغةً مشتركةً، والوجهُ التشاركيُّ في البحث والإسهامُ به، والترجمةُ العلميَّةُ وتعريبُ المعرفةِ،

العربيَّة لغة للتعليم والبحثِ، واللغة والثقافة بكونها تجسيداً لكيان الأمة الحضاري. آملين نحن العربَ أنْ نوليَ هذه القضيَّةَ ما تستحقُّه من وقتٍ وجهدٍ ودعمٍ كي تضطلعَ بدورها في التطوُّرِ الحضاريّ العامّ. وتقعُ المسؤوليَّةُ في ذلك كلِّهِ على الجهاتِ الرسميَّةِ صاحبةِ القرارِ والمؤسَّساتِ العلميَّةِ والثقافيَّةِ المعنيَّةِ وكلِّ من يعِي أنَّ اللغةَ والبحثَ العلميَّ والثقافةَ أبوابٌ خصبةٌ للحوار والتشاركِ والعملِ لتحقيقِ التقدُّمِ المنشودِ.

4- نظراتٌ في هيمنة اللغةِ الإنجليزيَّةِ وتأثيراتِها في التعليم والبحثِ والثقافةِ:

جلبَ استعمالُ الإنجليزيَّةِ بكونها لغةً مقبولةً لتواصل العلماءِ في المملكةِ المتحدة والولاياتِ المتحدةِ وبلدانٍ أخرى ناطقةٍ بها معاً فوائدَ وأضراراً. ونستطيعُ أن نطلقَ، بكوننا باحثينَ واختصاصيّينَ ومدرِّسينَ بعلمٍ ما وباللغةِ والترجمةِ العلميَّةِ، محاولةً للإشارة إلى بعضِ المشكلاتِ الرئيسةِ التي يواجهُها العلماءُ الناطقون بالإنجليزيَّةِ أصلاً. فحسبُ هذا الرأي أنْ يفرزَ من الشعور بأسبقيَّةِ الملكيَّةِ لمستوًى عالٍ من الأداءِ بالإنجليزيَّة شعوراً مزيَّفاً بالتفوُّقِ. فإنَّ الباحثينَ الذين يحتاجونَ إلى تعلُّمِ لغةٍ أجنبيَّةٍ لنشرِ أعمالهم، يحصلونَ على وقتٍ إضافيٍّ، وفي المقابلِ يفقدونَ القدرةَ على قراءةِ مقالاتٍ بلغاتٍ أخرى، والاختصاصيُّونَ من بلدانٍ أخرى يمكنُهم في النهاية أن يكتبوا ويقرؤوا بالإنجليزيَّة، ويحتفظوا بإمكانيَّة الوصولِ إلى المعلوماتِ كذلك بلغاتِهِمُ الخاصَّةِ. ويقومُ أكاديميون من بلدانٍ مثلِ اليابانِ والصينِ وألمانيا بالتنافس مع الباحثينَ في العالمِ الأنجلو- أمريكيّ في ميدان النشرِ في مجلَّاتٍ بحثيَّةٍ مرموقةٍ، ففي بلدٍ مثلِ فرنسا، التي تشتهرُ بحرصها على الثقافةِ واللغةِ وحمايتهما، تحرزُ الإنجليزيَّةُ مكانةً جديدةً في الجامعات الفرنسيَّةِ ومقتنياتِ مكتباتها، وتزدادُ نسبةُ الأساتذةِ الجامعيينَ الذين يستعملون الإنجليزيَّةَ في محاضراتِهم وبحوثِهم؛ لذلك كان على اللغاتِ والمعارفِ المحليَّةِ أنْ تدفعَ ثمنَ استعمالِ الإنجليزيَّة في تدويل البحثِ العلميّ والتعليمِ العالي. ويعلِّقُ مونتغمري في هذا الخصوص: "إنَّ الناطقَ الأصليَّ بالإنجليزيَّةِ الذي يستطيعُ أن يقرأ مادةً علميَّةً بلغةٍ أخرى رئيسةٍ مثلِ الصينيَّةِ أوِ الإسبانيَّةِ أوِ الروسيَّةِ أوِ البرتغاليَّةِ أوِ الألمانيَّةِ أوِ الفرنسيَّةِ أوِ اليابانيَّةِ، هو في موقعٍ متفوِّقٍ كثيراً على موقع الناطقِ بلغةٍ واحدةٍ" (مونتغمري، 2014، 238). ويفيدُنا هذا الرأيُ أنَّ الباحثَ الذي يعرفُ لغاتٍ مختلفةً، منها الإنجليزيَّةُ، يستطيعُ المشاركةَ في مشاريعَ شاملةٍ تتخطَّى الحدودَ القوميَّةَ ولها أبعادٌ عالميَّةٌ.

ويجلبُ انتشارُ الإنجليزيَّةِ اهتماماتٍ ومشكلاتٍ منها مسائلُ انحسارِ لغاتٍ محليَّةٍ والهيمنةُ الثقافيَّةُ والنقدُ ما بعد الاستعماريّ. وإذا سهلَ تجاوزُ نقدٍ كهذا بالمُحاجَّةِ أنَّ الإنجليزيَّةَ ضروريَّةٌ حالياً من أجل الحركيَّةِ الاجتماعيَّةِ والازدهارِ الاقتصاديّ والتطويرِ التعليميّ، تبقى هناك أسئلةٌ مهمَّةٌ غيرُ مُجابٍ عنها تخصُّ التأثيراتِ الاجتماعيَّةَ والثقافيَّةَ للإنجليزيَّة بكونها لغةً عالميَّةً. ونستطيعُ القولَ صراحةً: إنَّ مأساةً حقيقيَّةً تحدثُ في مشكلة خسرانِ التنوُّعِ اللغويّ في العالم نتيجةً

لسيادة الإنجليزيَّة، وذلك حين تتعرَّضُ لغاتٌ محليَّةٌ لخطرِ الانقراضِ، ويمكنُنا الاعترافُ بوجود هذه المشكلةِ في البحثِ، وثمَّةٌ جهودٌ تُبذَلُ للحفاظ على لغاتٍ معيَّنةٍ في أمريكا اللاتينيَّةِ وأفريقيا وأستراليا وأماكنَ أخرى من العالم. وهذا بالطبعِ لا يكفي، لأنَّ توسُّعَ الإنجليزيَّةِ المتزايدَ بجعلها معياراً دولياً يهدِّدُ أشياءَ كثيرةً تتجاوزُ اللغاتِ أيضاً. لقد أدَّى انتشارُ اللغةِ الإنجليزيَّةِ إلى رفع مخاطرِ التهديدِ اللغويّ إلى المستوى العالي حالياً. وبكونها لغةَ العولمةِ اتُّهمتْ بالإمبرياليَّةِ اللغويَّةِ إذ وصلت قوتُها المتعاظمةُ لا إلى مجرَّدِ إضعافِ اللغاتِ المحليَّةِ بل إلى إبادتِها جماعياً (مونتغمري، 2014، 87). ويطرحُ كتابُ ديفيد كريستال "موتُ اللغةِ" (2000) بعضَ أهمِّ القضايا المتعلّقةِ بموت اللغاتِ ويقدّمُ معلوماتٍ نفيسةً تعينُ على تقليص الأخطارِ المحدقةِ باللغاتِ في مناطقَ مختلفةٍ من العالم. ويوردُ نقاشاً مفصَّلاً عن سبل الحفاظِ على اللغاتِ المهدَّدةِ بالانقراض، وينبّهُ إلى ضرورة تطبيقِ معاييرَ على اللغاتِ كلِّها، لمعرفةِ حاجتِها إلى الجهود السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ التي تساعدُها على البقاء. ويبيّنُ دورَ اللسانياتِ العامَّةِ والاجتماعيَّةِ منها خصوصاً، في تبنّي المعاييرِ التي تساعدُ اللغاتِ المهدَّدةَ على النهوض والاستمرار بتعرُّفِ التغيُّراتِ الذي تمرُّ بها اللغةُ قبل موتِها. وفي الواقع، يوجدُ تنوُّعٌ للغاتِ البشريَّةِ لدى مجموعاتٍ صغيرةٍ من الشعوب المحليَّةِ المبعثرةِ بين أممٍ تسودُ فيها لغاتٌ قويَّةٌ اقتصادياً واجتماعياً وأكثرُ تحدُّثاً من غيرها. وبناءً عليه، في عالمٍ نصّيٍّ، تعدُّ هذه اللغاتُ المحليَّةُ التي تزيدُ على ستة آلافِ لغةٍ ضعيفةً للغاية، وستمائةِ لغةٍ منها فقط تعيشُ في مأمنٍ من التهديدِ بالانقراض(ص 19–26).

إنَّ اللغاتِ هي المظاهرُ الجوهريَّةُ المعبّرةُ عن حياة الناسِ في أيِّ مجتمعٍ وعنِ الوظائفِ المتحرّكةِ فيه. لذلك كان من أهداف برامجِ التخطيطِ اللغويّ الاهتمامُ الخاصُّ بحقوق الأفرادِ ومؤسَّساتِ المجتمعِ المدنيّ والتفاهماتِ البينِ – ثقافيَّةِ ووصولِ الجميع إلى تعليمٍ نوعيٍّ. وقد استحوذَ متعلّمو اللغاتِ أو مستعملوها على مكانةٍ مهمَّةٍ في سياساتِ التخطيطِ اللغويّ، مهما كان وضعُ تلك اللغاتِ، سواءٌ أكانت لغةً رئيسةً تُستعمَلُ في المدارس، أم لغاتٍ أجنبيَّةً، أم لغاتٍ تستعملُها أقلّياتٌ أو عائلاتٌ أو أقاليمُ محدَّدةٌ، أم لغاتِ لاجئينَ في مجتمعاتٍ مختلفةٍ. من هنا أتتْ مشروعيَّةُ الاعترافِ بالتعدُّديَّةِ اللغويَّةِ والتنوُّعِ الثقافيّ والتركيزِ على أوضاعِها وتطويرِها لتنفيذها على نحوٍ عمليٍّ. ونوردُ هنا الحجَّةَ القويَّةَ التي يعرضُها مجلسُ أوروبا في "الدليلُ إلى سياساتِ تعليمِ اللغةِ" الذي يوضِّحُ أنَّ تنميةَ التعدُّديَّةِ اللغويَّةِ:

> ليس ضرورةً وظيفيَّةً وحسبُ: إنَّهُ مقوّمٌ أساسيٌّ من مقوّماتِ السلوكِ الديموقراطيّ. فالاعترافُ بالتنوُّعِ في الذخائر المتعدِّدةِ لغوياً للمتحدّثينَ يجبُ أنْ يقومَ بقبول الاختلافاتِ اللغويَّةِ: احترامُ الحقوقِ اللغويَّةِ للأفراد والجماعاتِ... احترامُ حريَّةِ التعبيرِ... احترامُ تنوُّعِ اللغاتِ للتواصلِ الإقليميّ والدوليّ... فسياساتُ تعليمِ اللغةِ مرتبطةٌ على نحوٍ وثيقٍ بالتعليم من أجل قيمِ مواطنةٍ ديموقراطيَّةٍ لأنَّ أهدافَها يُكمِلُ بعضُها البعضَ: فتعليمُ اللغةِ، بكونه

الوضعَ المثاليَّ للاتصال القائمِ بين الثقافاتِ، قطاعٌ يمكنُ فيه تضمينُ التعليم من أجل حياةٍ ديموقراطيةٍ في أبعادها البينِ ثقافيَّةٍ في أنظمة التعليمِ. (مجلس أوروبا، 2007، 36)

ويمكنُ التفكيرُ ملياً في هذه النتيجةِ بأنَّ ذلك كلَّهُ يساعدُ في أنحاءٍ مختلفةٍ في بناءِ مواطنٍ علميٍّ أفضلَ في جمهوريَّةِ البحثِ العلميِّ العالميَّةِ. إذ ليس هناك بديلٌ للمهاراتِ البينِ ثقافيَّةٍ. ومن الصحيح القولُ إنَّ العلمَ يحتاجُ إلى لغةٍ مشتركةٍ، ولديه حقيقةُ هذه اللغةِ، بيد أنَّ لغةً كهذه لا يمكنها تسطيحُ العالمِ وجعلُه واحداً على الصعيد العلميِّ، فما دام العلمُ الوطنيُّ جزءاً حيوياً من المشروع العامِّ، فإنَّ الأحاديَّةَ اللغويَّةَ نفسَها شكلٌ من العزلةِ والتقوقعِ.

والحقيقةُ أنَّ جوانبَ غيرَ باديةٍ للعيان من السيطرةِ العالميَّةِ للغةِ الإنجليزيَّةِ تؤثِّرُ في المعرفة والإبداعِ عموماً، والعلمِ خصوصاً، والتخطيطِ اللغويِّ والفكرِ الإنسانيِّ. إنَّ اقتحامَ الإنجليزيَّةِ الواسعَ لبقيَّة العالمِ، يُعدُّ شكلاً من الهيمنة الثقافيَّةِ والمعرفيَّةِ. وقد يفرزُ ذلك تناقضاتٍ على الصعيدينِ العالميِّ والمحليِّ ليسَ من السهل قبولُها أوِ التعاملُ معها. ويمكنُ التلميح إلى تلك الجوانبِ أوِ النتائجِ ولو على نحوٍ موجزٍ:

أولاً، يمكنُ لسيطرةِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ أنْ تفاقمَ الوضعَ وتجلبَ نوعاً من المظالم بين الأفرادِ والمؤسَّساتِ والمنظماتِ؛ إذ توجدُ مشكلاتٌ بين الذين يملكونَ استعمالَ خبراتٍ ناطقةٍ بالإنجليزيَّة، ومترجمينَ ومحرّرينَ وطواقمَ وظيفيَّةٍ وعامِلينَ مختلفِينَ ومبتعثِينَ للتدرُّبِ في الخارج، وبين غيرهم ممن لا يملكونَ ذلك.

ثانياً، أصبح الواقعُ يفرضُ على العلماء والأكاديميّينَ أنْ ينخرطوا في لعبة النشرِ في الدورياتِ العلميَّةِ الصادرةِ بالإنجليزيَّةِ والمفهرسةِ في قواعد البياناتِ الدوليَّة للعثور على أو الاستمرار في وظيفةٍ بطابعٍ علميٍّ مميَّزٍ ويشقُّونَ طريقَهم صعوداً في سلَّمِ الرواتبِ. والنتيجةُ قد لا تحظى أفضلُ الأبحاثِ التي تُنجَزُ بلغةٍ محليَّةٍ بفرصةٍ للنشر بالتنافسِ ولو مع بحثٍ عاديٍّ كُتب بالإنجليزيَّة. وهذا يفضي إلى صعوبةٍ في معرفة ما يُكتَبُ باللغات المحليَّةِ وفي النفاذِ إلى الخططِ الوطنيَّةِ أوِ التشاركِ معها، وأن على العلماء في البلدانِ غير الناطقةِ بالإنجليزيَّة الذين تشتهرُ أعمالُهم محلياً أنْ يسعوا جاهدينَ لتقديمِ أعمالِهم وترجمتها لجعلِها معروفةً.

ثالثاً، إنَّ مؤسَّساتِ التعليمِ العالي في البلدانِ غير الناطقةِ بالإنجليزيَّة تقدِّمُ على نحوٍ متزايدٍ مقرَّراتٍ عامَّةً واختصاصيَّةً بالإنجليزيَّة قبل التخرج وفي الدراسات العليا. فراحتِ الجامعاتُ تعمل على رفعِ مستوى وارداتها الماليَّةِ بجلب طلابٍ محليّينَ أو أجانبَ لتعلُّمِ الإنجليزيَّةِ أو لتلقّي معارفَ بها. ويعني هذا أنَّ الأساتذة سيقومونَ بتصميم مقرراتٍ وتدريسِها بلغةٍ غيرِ لغتهم أساساً وسيتلقَّاها طلبةٌ غير ناطقين بالإنجليزيَّةِ أصلاً. ويعني هذا أيضاً أنَّ ثمَّةَ تضميناتٍ تتعلَّقُ بنوعيَّةِ التدريسِ والمنهاجِ ومستوى التحصيلِ والتعلُّمِ تحتاجُ إلى مسوّغاتٍ يجبُ الخوضُ في مناقشتِها على نحوٍ

مفصَّلٍ.

رابعاً، إنَّ هيمنةَ الإنجليزيَّةِ قد يكونُ لها نتائجُ مؤثِّرةٌ ثقافياً ولغوياً فتتسرَّبُ إلى الممارساتِ الاجتماعيَّةِ والتربويَّةِ الأوسعِ. وتعني هيمنتُها أنَّ القيمَ الثقافيَّةَ للناس غيرِ الناطقين بها ستنزاح بالتدريج لمصلحةِ المتحدثين بها أساساً. ويعبِّرُ الروائيُّ والكاتبُ الشهيرُ ماريو فارغاس يوسا عن واقع الحالِ حين يكتبُ: " توسعتْ فكرةُ الثقافةِ إلى قدْرٍ لم يجرؤْ أحدٌ على قوله بصراحة اختفتْ معه. وأصبحتْ شبحاً عصياً على الفهم، ومتعدِّداً بغزارة، ومجازياً (اقتباسٌ في كتاب باتريك دينين، لمَ فشلتِ الليبراليَّة، 2020، ص 83-84). وتظهرُ هذه العبارةُ إحساساً شديداً، وكاشفاً بوضوح، الوضعَ المحزنَ الذي آلتْ إليه الثقافةُ العالميَّةُ تحت تأثير العولمةِ التي حولتِ الفكرَ والأدبَ والفنَّ الإنسانيَّ إلى قيمٍ استهلاكيَّةٍ سريعةِ الذوبان؛ وينجمُ عن هذا الأمرِ في الحقيقة "نزعُ أحشاءِ الثقافةِ باعتبارها مجموعةً من التقاليد والممارساتِ والطقوسِ الجيليَّةِ الراسخةِ في سياقاتٍ محليَّةٍ ومحدَّدةٍ"(83).

خامساً، ثمة قلقٌ حولَ إمكانيَّةِ الهيمنةِ المعرفيَّةِ الناشئةِ من فرض الإنجليزيَّةِ في تعليم المراحل المبكرة خصوصاً. فمن المعروفِ أنَّ الطفلَ يتعلَّمُ في بلده لغتَه الأمَّ بعد توافر الملكةِ اللغويَّةِ أوِ الاستعدادِ النظريِّ أوِ اكتسابِها، ويشملُ ذلك التكوينَ الجسديَّ المتمثِّلَ في جهاز النطقِ وسلامتِه والاستعدادِ العقليِّ الذي يتمكَّنُ به الدماغُ من تأديـة وظيفتِه. ويظلُّ هذا الطفلُ قادراً على تعلُّمِ لغاتٍ أخرى قليلاً أو كثيراً. وتبدي بعضُ الأُسرِ رغبتَها في أولويَّةِ تعليم أبنائِها لغةً أجنبيَّةً، ولا سيما الإنجليزيَّةِ، بدعوى تأمينِ مستقبلٍ أفضلَ لهم. ولما كانتِ اللغةُ الأمُّ تمتلكُ التأثيرَ الأكبرَ في تلقِّي المعارفِ في المراحلِ الأولى من التعليم، فإنَّ إقحامَ الإنجليزيَّةِ، أو أيَّةِ لغةٍ أجنبيَّةٍ، في مراحلِ التعليمِ الأولى على نحوٍ شاملٍ سيجعلُ اللغةَ الأمَّ تتأثَّرُ بطرائقِ تفكيرٍ جديدةٍ، وستُوجدُ ثنائيَّةٌ لغويَّةٌ تنعكسُ في السلوك وطرائقِ التعبير، ومعرفةَ القراءةِ والكتابةِ وممارستَها، وتعريفَ الثقافةِ.

سادساً، بإمكان الناطقِ الأصليِّ باللغة الإنجليزيَّةِ أن يشعرَ بالرضا والارتياح من هيمنة لغتِه، بيد أن ذلك لا يلغي شعورَه بأن لغتَه لم تعدْ سوى أداةٍ نفعيَّةٍ لأداء وظيفةِ الاتِّصالِ الأساسيَّةِ فحسبُ، أي أنَّها وسيلةٌ للحصول على المعاني من الآخرينَ على نطاق واسعٍ لتحقيق التواصلِ العالميِّ. ولكنْ حينئذٍ، عليه أن يستكينَ وألا يشعرَ بالقلق من حاجته بنفسه إلى تعلُّمِ لغةٍ أخرى.

سابعاً، قد تتوافرُ مُسوِّغاتٌ حين يشعرُ الناطقُ الأصليُّ بالخوف من ذلك الخليط العالميّ الحاصلِ بهذه اللغة. فالنعمةُ التي يشعرُ بها من المقارنة مع الناطقين غيرِ الأصليّينَ باللغة الإنجليزيَّة قد تؤدّي به إلى الشعورِ بأنَّ هذه اللغةَ ستحرَّفُ، وتُلوَى بقوَّةٍ ثمَّ تنحني تحت وطأةِ محاولاتِ الذين يرومونَ تعلمها واستعمالها. ويمكن إيرادُ قصصٍ تحتوي على شيءٍ من هذا الشعور، والتحدُّثُ عن تطور الإنجليزيَّة إلى إنجليزياتٍ، بمعنى أن هناك واقعياً لغاتٍ إنجليزيَّةً لا لغةً واحدةً فحسبُ. إذ يمكنُ الحديث تماماً عنِ الأستراليين الذين لا يتحدَّثونَ أو يكتبونَ الإنجليزيَّةَ التي نجدُها

في المملكةِ المتحدةِ أوِ الولاياتِ المتحدةِ أوِ الهندِ أوِ الصينِ. فهم يستعملون ما يمكن تسميتُه الإنجليزيـَّةَ الأستراليـَّةَ القياسيـَّةَ التي تختلفُ عنِ الإنجليزيـَّةِ السائدةِ بصورةٍ أكبرَ. لذلك تُعدُّ الإنجليزيـَّةُ مصدراً مفتوحاً للغةِ، تظهرُ فيها أشكالٌ من التهجينِ في أرجاءٍ مختلفةٍ من العالم بقدر ما يقومُ أناسٌ مختلفو اللغاتِ والثقافاتِ بمزجِ إنجليزيَّتِهم بلغاتِهم وثقافاتِهم.

ثامناً، مع تحوُّلِ المجتمعاتِ إلى الاقتصاد القائمِ على المعرفة تزدادُ قيمةُ الأصولِ المعرفيـَّةِ غيرِ الماديـَّة ودورُها، ويبقى التقدُّمُ التقنيُّ غيرَ كافٍ في اقتصاد المعرفةِ (محمد مراياتي، اللغة والتنميـة المستدامة، ص58)، فالنموُّ الاقتصاديُّ يرتبطُ بالمستوى العلميّ والتقنيّ لمجموع العاملينَ في هذا القطاع، ورفعُ هذا المستوى هو أحدُ الحلول للنموّ الاقتصاديّ العربيّ، لأنَّ القوى العاملةَ العربيـَّةَ بحاجة للاطلاع على قضايا العلمِ والتقنيـَّةِ باللغة العربيـَّةِ. إذ لا يمكنُ لهذه المعرفةِ العلميـَّةِ أن تنتشرَ إلا باللغة الوطنيـَّةِ التي يستعملُها الأفرادُ في كلِّ مكانٍ فكلما زادَ عددُ من يعرفونَ اللغةَ العلميـَّة وأسرارَها، زادتِ الفائدةُ وعمَّتْ على الجميع كلِّهم، وكلما انتشرَ تلقّي العلم والتقنيـَّة باللغةِ الوطنيـَّةِ، وزادتِ الترجمةُ إلى اللغة الوطنيـَّةِ، زادتْ كفاءةُ العاملينَ ومعرفتُهم وفعاليتُهم، وبالمقابل عدمُ نشرِ لغةِ العلم والتقنيـَّةِ في المجتمع يؤدّي إلى خسارته كلِّهِ. فاللغةُ وعاءُ اكتسابِ التقنيـَّةِ، والترجمةُ إحدى أهمِّ وسائلِها، فعمليـَّةُ اكتسابِ التقنيـَّةِ تشتملُ على نقلها وتوطينِها ثم توليدِها، ومن وسائلِ هذا الاكتسابِ ترجمةُ العلومِ والتقنيـَّةِ، وتعليمُها للأفراد ولجميع العاملينَ بلغتِهم أي اللغةِ الوطنيـَّةِ الأمِّ (ناصر بن عبد الله الغالي، اللغة العربيـَّة في المنظمات الدوليـَّة، ص 55). فموضوعُ نقلِ التقنيـَّةِ ونشرها بات يشغلُ البلدانَ المتقدِّمةَ و الناميـةَ، ومنها العربيـَّةُ، على حدٍّ سواءٍ، ومن الصعبِ أن ينكرَ أحدٌ الدورَ الحيويَّ الذي يضطلعُ به المترجمونَ الاختصاصيُّونَ في ميادينِ نقلهم لأعمالٍ علميـَّةٍ حديثةٍ ومهمَّةٍ كُتِبتْ بلغاتٍ مختلفةٍ لرفد التنميـةِ التقنيـَّة في بلدانهم (عبد المطلب، "الترجمة والبحث العلمي"، ص48).

تاسعاً، إن تعلُّمَ اللغاتِ الأجنبيـَّةِ، وفي مقدِّمتها الإنجليزيـَّةُ، وحسبما هو مناسبٌ لكلِّ جماعةٍ هو أمرٌ مطلوبٌ من أجل اللحاق بالركبِ العلميّ العالميّ. ولا يشكِّلُ التواصلُ المنفتحُ على العالم بصورةٍ متَّزنةٍ أيَّ عائقٍ أمام الباحثينَ الذين يستعملونَ لغتَهمُ القوميـَّةَ في عملِهمُ العلميّ. لكن تعميمُ مقرَّراتٍ جامعيـَّةٍ وفرضُ تدريسِها حصراً بالإنجليزيـَّة، وقصرُ قبولِ البحوثِ واعتمادِها ولا سيما في الترقياتِ لأن تكون منشورةً بالإنجليزيـَّة وفي مجلاتٍ عالميـَّةٍ مصنَّفةٍ، وإهمالُ النشر باللغة القوميـَّةِ والتقليلُ من قيمة النشرِ في الدورياتِ الجامعيـَّةِ والوطنيّةِ المحكَّمةِ، وإجبارُ المدرسينَ والباحثينَ وطلبةِ الدراسات العليا على تعلُّمِ الإنجليزيـَّةِ والكتابةِ بها، يعني وضعَ تقييداتٍ على الوصول إلى المعرفةِ بلغةٍ واحدةٍ وحسب. فتأثيرُ هذا الفرضِ في المعرفةِ الواجبِ اكتسابُها له نتائجُ سلبيـَّةٌ، لأنَّهُ يحدُّ من قدرةِ المعنيّينَ على التعامل مع المعلوماتِ وتحويلِها إلى معرفة، ومن ثَمَّ القيامُ بإنتاج معرفةٍ بأفكار جديدةٍ. هذا مع التأكيدِ في الآن نفسِه أنَّ تعلُّمَ اللغاتِ الأجنبيـَّةِ، وفي مقدِّمتِها الإنجليزيـَّةُ، وتعليمَها

والاهتمامَ بالترجمة والتعريبِ هي من المصادرِ الأساسيَّةِ لتنميةِ اللغةِ العربيَّةِ وفتح بوَاباتِ الاتِّصالِ مع العالم، وتوفيرُ مهاراتٍ لغويَّةٍ بهدفِ استعمالِها أدواتٍ للتواصلِ العلميّ والسعيِ إلى تحقيق الأهدافِ الشخصيَّةِ والاجتماعيَّةِ والقوميَّةِ في البحث والإنتاجِ والإبداعِ والتطويرِ، سيفضي إلى تحقيق تميُّزٍ علميّ واستقلالٍ ثقافيّ، وإحرازِ مكانةٍ حضاريَّةٍ متقدّمةٍ (أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغويَّة، 1996، ص55-57).

عاشراً، إنَّ النظرَ في قضيَّةِ تعدُّدِ اللغاتِ في العمل العلميّ لا يتعلَّق بتحديدِ أيَّةِ لغاتٍ أجنبيَّةٍ أو عددِ اللغاتِ التي ينبغي إدخالُها في أنظمة التعليمِ بل يتعلَّقُ بتوجيهِ أهدافِ تعليمِ اللغة نحو اكتسابِ الكفايـةِ: يشملُ ذلك اللغةَ "الأمَّ"، واللغةَ (اللغات) الوطنيَّةَ والإقليميَّةَ، واللغاتِ الأجنبيَّةَ. ويشكِّلُ ذلك بالفعلِ هدفاً واقعياً، لأنَّ الذخيرةَ متعدِّدةَ اللغاتِ التي سيتمُّ تطويرُها بالتعليم يمكنُ أن تكون متنوّعةً، واللغاتُ لا يمكن ولا يجبُ تعليمُها جميعاً بنفس المستوى، وتعليمُها يجري طيلةَ الحياة ولا ينحصرُ في مدَّةِ الدراسةِ ومكانِها بل يمتدُّ إلى ميادينِ الحياة اليوميَّةِ والممارساتِ الثقافيَّةِ والعلميَّةِ المختلفةِ.

وأخيراً، نهيب بالباحثينَ والمديرينَ والمسؤولينَ العربِ في مجال التعليمِ العالي والبحثِ العلميّ التنبُّهَ إلى ضرورة وجودِ قاعدةِ بياناتٍ عربيةٍ رسميةٍ فاعلةٍ، توطَّنُ مثلاً في اتحاد الجامعاتِ العربيةِ ومقرُّهُ الأردن، ترعاها جامعةُ الدول العربية بالتنسيقِ مع الوزاراتِ أوِ الهيئاتِ أوِ المراكز والجهاتِ العربيَّةِ المختصّةِ، تفهرسُ لمجلاتٍ عربيةٍ، متخصّصةٍ ومتعدّدةِ الاختصاصاتِ، وتنشرُ باللغة العربيةِ ولها معاملُ تأثيرٍ عربيّ ومعاييرُ عربيةٌ تنشرُ في كافَّةِ التخصُّصاتِ وتلبِّي خصوصيةَ العلوم النظريَّةِ والتطبيقيَّةِ على حدٍّ سواءٍ، وتفيدُ من إجراءات قواعدِ البياناتِ العالميةِ مثلِ سكوبس وكلاريفيت. وذلك لا يعني مطلقاً أنْ تقومَ هذه القاعدةُ بحصرِ نشر أعمالِ الباحثينَ فيها أو تحولَ دون نشرِهم في مجلاتٍ عالميةٍ مفهرسةٍ عالمياً، ولا أنْ تنافسَها أو تبخسَها قيمتَها، بل تكسرُ الطوقَ الذي تفرضُهُ مؤسساتُنا الأكاديميةُ بحصريَّةِ النشر، لأغراضِ الترقيةِ أوِ التعيينِ أوِ التخصُّصِ أوِ الإدارةِ، في تلك المجلات الربحيَّةِ التي لا يكون النشرُ فيها أبداً المؤشرَ الوحيدَ على جودتها. ويقول واقعُ الحالِ إنَّ الأعمالَ المكتوبةَ بالإنجليزية والمترجَمةَ في كثيرٍ من الأحيان وعلى أنحاءٍ ركيكةٍ تُقبلُ بلا مراجعةٍ أو تدقيقٍ شريطةَ دفعِ مبالغَ ماليةٍ، وراحت هذه تزدادُ على نحوٍ ملحوظٍ في الآونةِ الأخيرة. إن استطلاعاً عاماً لبعض هذه المجلاتِ المفهرسةِ ومحتواها يثبتُ ذلك. وبالمقابل، العديدُ من المجلات العربية الجامعيةُ وغيرُها التي تصدرُ عن هيئاتٍ وجمعياتٍ عربيةٍ مازالت تتَّسمُ بالرصانةِ ولها تاريخٌ وتقاليدُ عريقةٌ في النشر؛ وأوضحُ مثالٍ عليها المجلاتُ التي تصدرُها مجامعُ اللغةِ العربيةِ في عددٍ من البلدان والتي لم تصنَّفْ أيٌّ منها بعد عالمياً. إنَّ وجودَ مثلِ هذه القاعدة العربيةِ لا يلبِّي فقط النشرَ في موضوعاتٍ تخصُّ المجتمعَ العربيَّ والإسلاميَّ واهتماماتِه ومجالاتِه البحثيةَ، لكنَّهُ يتيحُ أيضاً النشرَ والتعبيرَ بوضوحٍ عنِ القضايا والمشكلاتِ التنمويَّةِ القائمةِ التي

تعاني منها المجتمعاتُ العربيةُ والإسلاميةُ وفي مختلف القطاعاتِ. ولتحقيق ذلك، يمكنُ تسميةُ لجنةٍ أوليةٍ لمتابعةِ هذا الموضوعِ وتكلَّفُ واحدةٌ من هيئاتٍ أو وزاراتِ التعليم العالي والبحثِ العلميّ أن تكونَ قاعدةً في البداية لانطلاقِ هذه الفكرة. وتبحثُ هذه اللجنةُ في فوائد قاعدةِ البياناتِ هذه تحديداً وأهميةِ النشرِ في مجلاتٍ مدرجةٍ فيها، بعد فهرستِها وقياسِ التأثيرِ في المجتمع العلميّ العربيّ. وتتبعُ هذه القاعدةُ نظامَ المصدرِ المفتوح لتشجيع الباحثينَ لنشر أبحاثٍ من دون تكلفةٍ ويمكّنَ الباحثين من الوصول إليها بصورة مجانية من خلال محركات البحث العالمية الموجودة على الشابكة. وتسعى هذه القاعدة إلى وضع مؤشرات رقمية تعكس جودتها كمًا ونوعًا وهذه محاولات صحيحة إذ إن عملية التقويم دائماً مبدأ مهم ومعمول به.

والتصنيفاتُ المتعلّقةُ بالجودة لا تقتصر على الترتيب الرّبعيّ في سكوبس أو شبكةِ العلوم أو معاملِ التأثير أو غيرِها من المؤشّراتِ التراتبيَّةِ، فيوجدُ تصنيفاتٌ خاصةٌ لجودة المجلاتِ في بعض المجالاتِ العلميةِ، مثلُ التصنيفِ الأستراليّ والبريطانيّ كمؤشّرٍ للجودة، وكلاهما يعتمدُ على منهجيةٍ علميةٍ ويرتّبُ المجلاتِ بحسب درجتِها الأكاديميةِ دون إظهار محتوى المجلةِ، ويمكنُ أنْ تستفيدَ المجلاتُ الأخرى من هذه الفكرةِ وتصدرَ ترتيباتٍ مشابهةً بطريقةٍ علميةٍ، وذلك بالطبع يحتاجُ إلى دعمٍ مؤسَّسيٍ. ومن الملاحظ أنَّ قواعدَ البياناتِ بدأتْ تنفتحُ على قَبول مجلاتٍ تنشر بلغاتٍ أخرى غيرِ الإنجليزيةِ، وهذا من بابِ التوسُّعِ، ولكنَّ هذه المجلاتِ نادرةٌ وقليلٌ منها ينشرُ بالعربيةِ وسببُها عدمُ تطويرِ نظامِ اقتباسٍ رقميّ عربيّ والتقصّي في ذلك يقعُ بصورةٍ رئيسةٍ على عاتق الجامعاتِ والهيئاتِ ومراكزِ البحثِ العربيةِ وقواعدِ بياناتِهمْ إذ كثيرٌ من الدولِ كالصين وفرنسا وإسبانية لديهم مجلاتٌ مدرَجةٌ في هذه القواعدِ وأبحاثُهمْ بلغةِ شعوبِهم. وستعملُ هذه القاعدةُ على نشر البحوثِ بأنواعِها لاسيما ما له خصوصيةٌ عربيةٌ وإسلاميةٌ حضاريةٌ، أو دينيةٌ محليةٌ أو عمليةٌ وطنيةٌ أو قوميةٌ، وعليه لا داعيَ لحصرِ النشر في المجلاتِ العالميةِ، وعلى الإداراتِ الأكاديميةِ فهمُ هذا ومراعاتُه خصوصاً في الوجوهِ الشرعيةِ والعلومِ الإنسانيةِ والاجتماعيةِ وغيرِها. فمن الخطأ فرضُ النشرِ في مجلاتٍ دوليةٍ تنشرُ بالإنجليزيةِ على باحثينَ في العلومِ الشرعيةِ أوِ الإنسانيةِ أوِ التربويةِ أوِ الاجتماعيةِ والاختصاصاتِ المرتبطةِ بها. وهذا لا يمنعُ من وجودِ باحثين مؤهَّلينَ لمخاطبةِ المجتمع الدوليّ في مسائلَ تهمُّهمْ وباستعمالِ وسائلِهمُ اللغويةِ والبحثيةِ، لأن هذا نوعٌ من الحوار المطلوبِ مع نخبٍ علميةٍ اجتماعيةٍ أخرى وله طرائقُ مختلفة في بيانهِ وتناولِه عند المختصّينَ بتلك العلوم من منطلقٍ عربيٍّ– إسلاميٍّ. لا بدَّ في البدايةِ لهذه القاعدةِ من التواصلِ والتنسيقِ مع سائرِ قواعدِ البياناتِ الوطنيةِ المحليةِ في البلدان العربيةِ للانتفاعِ من تجاربِها والبناءِ عليها. وبلوغُ ذلك مشروطٌ بالإرادةِ والدعمِ الماديّ وهذا كلُّهُ من مهامّ الجهاتِ الرسميةِ صاحبةِ القرارِ.

5- الخاتمةُ

يؤكِّدُ هذا البحثُ أهميَّةَ البحثِ العلميّ في أيامنا هذه والحاجةَ المستمرَّةَ إلى لغةٍ عالميَّةٍ لإتمام

تلك العمليـَّةِ، وقدِ اضطلعتِ اللغةُ الإنجليزيـَّةُ بدورٍ مهمٍ في تحديد مسارِ البحثِ العلميّ ومستقبلِه في العقود الأخيرةِ. ويتَّضحُ ذلك من تأثيرها البالغِ في التعليم والبحثِ والثقافةِ. ولا يعني استعمالُها في تلك المجالاتِ التخلّيَ عن استعمالِ اللغة العربيـَّةِ مطلقاً أو عنِ التعدديـَّةِ اللغويـَّةِ في التعليم والبحثِ والثقافةِ. واستدعاءُ عمليـَّةِ الترجمةِ والتعريبِ كي تحتلَّ مكانتَها بكونها عاملاً تقنياً يسيرُ بالتوازي مع اللغة المشتركةِ عملياً تغدو تلبيةً لحاجةٍ محليـَّةٍ ضروريـَّةٍ. إنها ليست محاولةَ ارتدادٍ عنِ اللغة المشتركةِ والخروجِ عليها، إذ لا تستطيعُ هذه المحاولةُ إضعافَ الحاجةِ إلى لغة عالميـَّةٍ، بسببِ الفوائدِ الجمَّةِ التي تقدِّمُها في جامعاتِنا ومراكزِنا البحثيـَّةِ. لكن عمليـَّةَ الترجمةِ وتوطينَ المعرفةِ هنا وجهانِ لعمليـَّةٍ واحدةٍ تضطلعُ بدورٍ مهمٍ في إيجاد ذلك التوازن الرفيعِ والمشروعِ بين اللغتينِ المحليـَّةِ والعالميـَّةِ. وقدم البحث إضاءة لجوانبَ من القضايا المثارةِ على صعيد استعمالِ اللغة الإنجليزيـَّةِ وغيرها من اللغاتِ إلى جانب اللغة العربيـَّةِ مع الاهتمامِ بقضيـَّة الترجمةِ والتعريبِ في التدريس الجامعيّ والبحثِ العلميّ والنشرِ الثقافيّ، والتي تهدفُ إلى تشجيع الباحثِ والمدرّسِ والطالبِ والقارئِ المهتم على إبداء الرأي، والإضافةِ أوِ التعديلِ. لذلك لا ندَّعي لما عرضنا من أفكارٍ وتعليقاتٍ الوصولَ التامَّ إلى الحقائق، ولا نصفُ أيّاً منها بالتأبِّي على النقد والمراجعةِ. وتبقى الأفكارُ الأساسيـَّةُ في المناقشة من مسؤوليـَّةِ الباحثِ في النهايـَّة، ولعلّه فيما قدَّم من عرضٍ يصلُ فيه إلى نفع الزملاءِ الأكاديميّينَ والباحثينَ والمترجمينَ والطلبةِ الجامعيّينَ والقرَّاءِ المهتمّينَ عموماً، فتلك هي الغايـَّةُ الأساسيـَّةُ.

مراجع البحث

1. الحصني، الطيب. 10 نوفمبر 2021. هل يجب أن تموت العربيَّةُ الفصحى- raseef22.net/article/1085195.
2. الغالي، ناصر بن عبد الله، (2015). اللغةُ العربيـَّةُ في المنظمات الدوليـَّة، الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغةِ العربيـَّةِ.
3. المصري، عيسى. (2016). "صراعُ اللغات"، مقالٌ في مجلة العربي. الكويت: وزارة الإعلام، نوفمبر (تشرين الثاني)، العدد 696.
4. بنكراد، سعيد. (2013). تقديم، فتاوى كبار الكتابِ والأدباءِ: مستقبلُ اللغة العربيـَّةِ ونهضةُ الشرق العربي وموقفُه إزاء المدنيـَّةِ الغربيـَّةِ (الدوحة – قطر: وزارة الثقافةِ والفنونِ والتراثِ).
5. بنات، شفيق، عبد المطلب، فؤاد. (2015). "الثنائيـَّةُ اللغويـَّةُ بين اكتساب اللغةِ الأمّ (العربيـَّة) وتعلُّمِ اللغةِ الأجنبيـَّةِ (الإنجليزيـَّة)"، مجلةُ كليـَّةِ المأمون، تصدرُها كليـَّةُ المأمونِ الجامعيةُ، العدد السادس والعشرون، العراق–بغداد.

6. حاج لطيف، نوفل. الحدود إشكاليَّةُ العلاقة بين العالميّ والمحلي hekmah.org، ص1-17 2015/05/22.

7. حمد، جهاد، (2015) " الفسادُ في البحث العلميّ والحياةِ الاكاديميَّةِ... مستقبلُ التعليم إلى أين ". وكالة معا الإخباريَّة.

نشر بتاريخ 2015/8/23،http://www.maannews.net/Content.aspx?id=794162، accessed on 23-6-2018.

8. دينين، باتريك (2020). لمَ فشلتِ الليبراليَّةُ (الكويت: منشوراتُ المجلسِ الوطنيّ للثقافة والفنونِ والآداب)، عدد إبريل/نيسان، 483.

9. سوثرن، ريتشارد. (2006). صورةُ الإسلامِ في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمه وقدم له د. رضوان السيد، بيروت: دار المدار الإسلامي. Southern, Richard. (1963). Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

10. عبد المطلب، فؤاد.(1998). "الترجمةُ والبحثُ العلميُّ"، مجلةُ التعريبِ، المركزُ العربيُّ للتعريب والترجمةِ والتأليفِ والنشرِ بدمشق – المنظمةُ العربيَّةُ للتربيـة والثقافةِ والعلومِ، دمشق، العدد الخامس عشر، ص 35-64.

11. قسمُ السياسةِ اللغويَّةِ في مجلس أوروبا، "من التنوُّعِ اللغويّ إلى التعليم المتعدِّدِ لغوياً: دليلُ تطويرِ سياساتِ تعليمِ اللغةِ في أوروبا"، 2007. (بالإنجليزيَّة) www.coe.int/lang

12. كي، جاكلين. "الفتوحاتُ الإسلاميَّةُ وخلق بعضِ الأفكار عن أوروبا في الآدابِ الغربيَّةِ"؛ ترجمةُ فؤاد عبد المطلب وتقديمُه، المجلةُ الدوليَّةُ لدراساتِ اللغةِ العربيَّةِ وآدابِها، المجلد الثاني، العدد السادس، كانون الأول 2020، ص 77-98.

13. كريستال، ديفيد. (2003). الإنجليزيَّةُ لغةٌ عالميَّةٌ. (كمبردج: منشورات جامعة كمبردج، 2003). (بالإنجليزيَّة) Crystal, David. (2003). English as a Global Language. Cambridge: Cambridge University Press.

14. كريستال، ديفيد.(2000). موتُ اللغة. لندن: منشوراتُ جامعة كمبردج. (بالإنجليزيَّة).

Crystal, David.(2000). Language Death. London: Cambridge University Press.

15. مراياتي، محمد. (2014). اللغةُ والتنميـةُ المستدامةُ. الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي.

16. معتوق، أحمد محمد.(1996). الحصيلةُ اللغويَّةُ: أهميتُها، ومصادرُها، ووسائلُ تنميتِها. الكويت: المجلسُ الوطنيُّ للثقافة والفنونِ والآدابِ، عدد أغسطس/آب،212.

17. منتصر، عبد الحليم.(1971). تاريخُ العلمِ ودورُ العلماءِ العربِ في تقدُّمِه. القاهرة: دار المعارف.

18. مونتغمري، سكوت ل. (2014). *هل يحتاجُ العلمُ إلى لغةٍ عالميَّةٍ: اللغةُ الإنجليزيَّةُ ومستقبلُ البحثِ العلميِّ*، ترجمَه وقدَّمَ له د. فؤاد عبد المطلب، الكويت: منشوراتُ المجلسِ الوطنيِّ للثقافةِ والفنونِ والآداب، عدد ديسمبر كانون أول، 419.

Copyright of Jerash Journal for Research & Studies is the property of Jerash University and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.